

## الأزياء في منطقة دير الزور

هيفاء العلو<sup>(1)</sup>

في الجزيرة السورية الحضارات تحولت إلى مناطق نائية؛ وادي الفرات أسطورة مليئة بالأسرار، ترى حضارات قديمة، ولا عجب، فالتاريخ بدأ على ضفاف الأنهار الكبيرة ومنها الفرات.

دير الزور (عروس الفرات) المدينة المنسية التي أصبحت في مراحل حكم البعث رسميًا في سجلات الدولة (المنطقة النائية)، مصطلح غريب وفريد لم تعهده أكثر الدول مركزية وشمولية.

وصُمت المدينة في الذاكرة التلفزيونية بأسوأ الصور النمطية أيضًا، بدءًا من تصدير صورة (الشاوي المتخلف) التي أظهرتها وسائل الإعلام والدراما التلفزيونية محط سخرية، فظهر بصورة الجاهل والأي. إذ ما زال كثير من أهالي المدن المركزية يظنون أن المنطقة مجرد قبائل ترعى الغنم، وتعيش في خيم. وعزز ذلك غياب أي معلومة عنها في المناهج الدراسية.

لكن إذا دخلت مدينة دير الزور قبل دمارها ستري طابعًا اجتماعيًا مختلفًا، وسيخبرك الزي الشعبي للنساء وتنوعه في المدينة وريفها عن تاريخ هذه المدينة، والحضارات التي مرت في المنطقة.



### صفحة حوريات الفرات

(1) هيفاء العلو: مجازة في اللغة العربية، عملت في منظمات مجتمع مدني عدة.

في دير الزور تتمتع النساء بحضور قوي ومؤثر في الحياة اليومية، وهذا الحضور ليس حضورًا تقليديًا، وإنما يدل على استقلالية المرأة في المدينة، فأجيال النساء التي مرت على المدينة كل جيل له طابعه الخاص من الأزياء، بحسب الواقع السياسي والاقتصادي.

فترى جيل الجدات (الجابات) كما يعرف الجميع، هو جيل محافظ يغلب عليه طابع التدين البسيط، كُنَّ يرتدين العباءة (العباية الحبر) الجميلة.



أعلام دير الزور- العباية الديرية

إلا أن جيل بناتهم في الخمسينيات كان أوفر حظًا من التعليم، وأكثر انفتاحًا، جيل نساء عاملات متعلمات ومؤثرات في الأجيال، لهن حضور جميل، وأناقة المظهر. يجمعن بين تقليدية العباية الحبر المفتوحة والتي تظهر من تحتها ثياب عصرية أنيقة تلاحق خطوط الموضة.



### تراث دير الزور: وادي الفرات

لقد كانت العباءة الديرية الزي الرسمي والأميز للمرأة الفراتية، وقد تغنى كثيرون بها في الطرب الشعبي:

”قلبي على أبو الزلف

عيني يا موليا

أم العباية الحبر

حلوة يا ديرية“

لو حاولنا البحث في تاريخ ظهور العباءة قد لا نحصل على نتيجة محددة للزمن الذي ظهرت فيه بوصفها زيًا شعبيًا خاصًا بالمرأة الفراتية، وتحول في ما بعد هويةً للنساء الفراتيات، إلا أن بعض الباحثين يرون أنها وجدت في خزانة المرأة منذ أربعمئة ألف عام، أي منذ الحضارات القديمة أثبت حضورها في بلاد ما بين النهرين، وكانت زيًا للنساء اللواتي لا يقمن بأي عمل، أي بنات العائلات الثرية، ومن خلالها يتم التمييز بينهن وبين نساء الطبقات الشعبية.

ولون العباءة الأسود عُرف في المناطق الصحراوية، ربما جاء بسبب تقاليد الشعوب وثقافتها، أو بسبب طبيعة الجو.

ما يميز العباءة الديرية أن شغلها يدوي، لا يتم باستخدام أي آلة، وكم من امرأة ديرية أتقنت هذه المهنة

(تخريج العبايات)، وعاشت هي وعائلتها بكرامة لسنوات.

للعباءات أنواع، منها ما كانت للمشاورير العادية من مثل الذهاب إلى السوق، أو الذهاب إلى جارة قريبة. أما العباية الحبر فهي الأشهر والأغلى، وتخصص للزيارات الرسمية، ومن كانت لديها عباية حبر، كانت تتباهى بها بين النساء، وتعد العباية ركنًا أساسيًا من جهاز العروس. وبعض النساء الديرينات الميسورات الحال، كن يدخلن سلسال ذهب رفيع من جهة الأمام على اليمين واليسار لتزيين العباية ومنحها منظرًا جميلًا.

تقول ر. غزي (ثلاثون عامًا): هناك فئة كبيرة من الديرينات المسيحيات يلبسن العباية الديرية الجميلة، وقد كنت أشاهد جدتي وعماتي يلبسها، ويلبسن تحتها الثياب الأنيقة في زيارتهن القريبة للجيران.



صفحة حوريات الفرات

### البادية: ريف دير الزور

تختلف أزياء المدينة عن الريف في دير الزور، ويشكل لباس أهل البادية تراثًا شعبيًا مهمًا، حيث يعد اللباس مزيجًا من أزياء حضارات سكنت المنطقة على مر التاريخ، ويعكس الثوب أيضًا علاقة المرأة بواقعها وتعاملها مع الأرض، حيث نجد زخارفه ورموزه وألوانه جزءًا من البيئة.

ولباس النساء يتألف من ثوب ملون، ويلبسن فوقه (الصباية) أو الزبون، وتكون مفتوحة من الأمام.

الهباري: هي غطاء على الرأس تضعه المرأة الريفية تصنع من الحرير الطبيعي، وتُنسج بالنول اليدوي، وتُصنع بألوان زاهية، لذلك نراها شفافة ناعمة الملمس تلفها المرأة على رأسها، وتتدلى من تحتها الجدائل تسمى (الكذلة)، وفي غناء الميمر من الموروث الشعبي الفراتي قيل:

حابر أحب الحنج لولا المنحر

ما مر علينا بوكذيلة ما مر

كانت النساء يضعن على رؤوسهن ليرة ذهبية تعلق بالهبرية عند المقدمة، ويتزين بوضع التراجي (الحلق) في الأذن، وما يعرف باسم الوردينا (الخزام) في أنوفهن



لكن في نهاية الثمانينيات بدأت تتراجع العباءة الديرية أمام أشكال جديدة من الأزياء النسائية، لتصبح فلكلورًا. يقول المهندس ف. ح: في السبعينيات كانت النساء في دير الزور يلبسن العباءة المفتوحة التي تظهر من تحتها ألبسة أنيقة، وكان يغلب التدين البسيط، وقلما شاهدت الحجاب، ولكن أواخر الثمانينيات وأوائل التسعينيات بدأ كل شيء بالتهور في المدينة، وبدأت التشوهات الاجتماعية، بما فيها شكل اللباس، لقد تجاوز عدد المعلمين عشرات الآلاف في الخليج، وخاصة في السعودية، وعودتهم يحملون الفكر الوهابي حيث كان لهم تأثير في ما بعد بالمدارس، وبدأت العباءة تعود مع عائلاتهم عند كل إجازة صيفية، لتصبح مظهرًا اجتماعيًا لافتًا، أزاح الألبسة المحلية التي قبلها، وتعتمد الأسد أيضًا تهميش المنطقة بسبب استراتيجيته في الحكم، وهو خلق تجمعات بشرية في المدن الكبرى مثل دمشق وحلب وتريف المدن الأخرى، وتهميش دير الزور لم يكن فريدًا، إنما واقعًا مشابهًا للمحافظات السورية الأخرى. لذلك طغى اللباس الريفي على المدينة، كما أن نتيجة فشل الأنظمة السياسية في تلك المدة، والفشل الثقافي، وفقدان الهوية الوطنية، سادت هويات فرعية من مثل الهوية العشائرية والدينية في المدينة“.

تقول السيدة ن. ع: ارتبطت العباءة الديرية في ذاكرتي بأناقة معلماتي في المدرسة الابتدائية في ثمانينيات القرن الماضي، وكنت طفلة مثل جميع من هم في سني تحلم باللحظة التي تصبح فيها صبية، وتستطيع لبس العباءة مثل معلماتي جميعهن، تحتها التنورة القصيرة وقميص الحرير، مع إظهار خصلات شعري (الغرة) كما كانت تفعل السيدات في ذلك الوقت. كنت أتسلل، وأجرب لبس عباة السوق لوالدي، لأنها كانت تمنع عني عباة الحبر خوفاً من اتساخها وتلفها، لأنها لم تكن رخيصة، ومن الصعب الحصول على عباة جديدة. مع منتصف التسعينيات بدأت تظهر عباة جديدة الشكل تختلف عن العباة التي اعتدناها، انتشرت فقط بين النساء اللواتي لديهن أقارب في الخليج، إذ كنّ حصلنا عليهما كهدايا، بدأت ألاحظ انتشارها في صفوف المعلمات والموظفات، وكانت معظم التعليقات بأنها أسهل في الحركة والتنقل، ولسنا بحاجة إلى اختيار ألبسة يومية للظهور، وبالتالي هو عذر لتوفير ثمن الملابس لمحدودي الدخل، عباة واحدة تكفي لأيام الأسبوع والدوام. وكان يتم تداول نكات مفادها أنه (لبس العباة الخليجية ع السريع فوق تياب البيت وما حدا شايف)، لكن استبدال العباة الخليجية بالعباة الديرية، وانحسار الأناقة بحجة السرعة، والتخلص من عبء الأناقة ومتطلباتها، هذا التغيير المتسارع ليس في شكل اللباس، إنما رافقه انتشار الحجاب انتشاراً كبيراً بين السيدات والتدين بين الشباب. ولعل السلوك الاجتماعي الذي سلكته الشباب معظمهن بأن يلبسن الحجاب لزيادة فرصهن في الزواج هو ترجمة واضحة وكبيرة تعبر عن التغيير الحاصل في نمط تفكير الشباب في دير الزور في تلك المدة.

فجيل التسعينيات جيل الفقر ولباس الفتوة (العسكرية)، ومعلمات التيارات الدينية الصاعدة مقارنة مع جيل الأمهات الأنيقات، وكذلك الذكور لم يكونوا أوفر حظاً، إلا أن هذا الجيل المقهور لم يستكن وهو من قام بالثورة.



شارك أهل مدينة دير الزور في الثورة على نظام بشار الأسد عام 2011، وخرجت تظاهرات في المدينة التي قوبلت بالحديد والنار.

في عام 2012 سيطرت فصائل معارضة على أجزاء واسعة من المدينة، ومع تصاعد نفوذ تنظيم الدولة الإسلامية وسيطرته على أجزاء واسعة من سورية والعراق، استولى على المناطق التي كانت تحت سيطرة الفصائل في دير الزور في 14 تموز، وتمكن تنظيم الدولة الإسلامية من السيطرة على كامل مناطق الجيش الحر في دير الزور وريفها، وفرض حصار عام 2015.

تحاصر المدينة، وكل شيء يختفي من الأسواق ومن الحياة، إلا شيء واحد يزداد كل يوم، قائمة المحرمات على المرأة، أصبحت النساء يعانين التهميش والاضطهاد وفرض القوانين والعقوبات من قبل أعضاء التنظيم في حين كانت هناك قيود غير إنسانية ضد الحريات الشخصية، فتضطر المرأة للعيش في خوف دائم إذا كانت تسير في الشارع أو تذهب للتسوق، فالنساء صار لزاماً عليهن عدم الخروج إلا مع محرم، وفرض اللباس الشرعي، وعوقب من لا يلتزم بالجلد أو الغرامات المالية.

يقول أحد الناشطين في دير الزور: "جهاز الحسبة التابع لتنظيم داعش اعتقل نساء يعملن في الأرض بريف دير الزور لعدم الالتزام باللباس الشرعي".

تقول (ش.ح) وهي شابة موظفة انتقلت من دير الزور إلى دمشق في 2012: لقد شدد النظام على المحاسبين بعدم صرف أي راتب إلا لصاحبه شخصياً، لذلك يتعين على أبناء دير الزور الحضور بصورة شخصية (لحي الجورة) المحاصر لاستلام رواتبهم، لذلك لبست اللباس الشرعي خوفاً من تنظيم الدولة (داعش)، وكنت وحدي، لم يكن معي محرم، عندها في الباص تبرع شاب، وساعدني، وقال إنه زوجي. ومن بعد تلك الحادثة لم أذهب إلى دير الزور لاستلام راتي، وفصلت من وظيفتي.



شبكة المرأة السورية، معاناة النساء في دير الزور تحت حكم داعش

وبعد خروج تنظيم الدولة (داعش) من دير الزور عادت النساء إلى وضعهن الطبيعي، خلعن النقاب المفروض عليهن، المحجبة عادت إلى حجابها، وغير المحجبة عادت إلى لباسها السابق. وبقية عروس الفرات مهمشة ومنسية أكثر من السابق.